الشـــيخ الشـــرقاوي
(١١٥٠-١٢٢٧هـ=١٨١٢م)

# يقاوم طغيان المماليك ويعزل الوالي

obeikandl.com

تاريخ الأزهر الشريف هو صفوة تاريخ مصر، وتاريخ مصر هو صفوة تاريخ الأمة العربية والشعوب الإسلامية. مصر هي التي صدت جحافل التتار بعد أن اجتاحت جيوشهم عاصمة الخلافة في بغداد، وهي من قبل التي أعادت بيت المقدس إلى المسلمين بقيادة صلاح الدين الذي دمر الصليبيين في حطين.

وفي كل هذه المعارك كان لعلماء الأزهر الشريف دور بارز، لم يكتفوا بالقيادة الروحية للأمة، بل كانوا يقودون الشعب في كل معاركه.

كانوا يدعمون سلطة الحكام إذا أحسنوا، ويزلزلون عروشهم إذا جنحوا للظلم، وكان المصريون يفزعون إلى علماء الأزهر في أوقات المحن للدفاع عن حقوقهم والوقوف في وجه استبداد الحكام وطغيانهم.

ومن العلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر، وكان لهم دورهم المؤثر في الحركة الوطنية وإعلاء كلمة الحق، والوقوف إلى جانب أبناء الشعب ضد جور وظلم الحكام الشيخ عبدالله الشرقاوي، الإمام الثاني عشر للأزهر الشريف. وهو «عبدالله ابن حجازي بن إبراهيم الشافعي»، وُلد بقرية الطويلة من ضواحي بلبيس محافظة الشرقية، سنة ١١٥٠ هـ، ومن هنا أطلق عليه لقب الشرقاوي.

حفظ القرآن الكريم في قرية القرين، ثم رحل إلى القاهرة للدراسة في الأزهر، حيث درس على مشاهير علمائه مثل الشهاب الملوي،.. الشهاب الصعيدي، الشيخ الجوهري، والإمام الدمنهوري.

### ميل إلى التصوف:

ومال الشرقاوي بفطرته إلى التصوف، واتصل بالصوفي الشهير في ذلك الوقت «الشيخ الكردي» فلازمه وأخذ عنه. وعاش في القاهرة تتقلب به الأيام بين مرارة الفقر وحلاوة اليسر، وعاش مغمورا فترة طويلة، ثم رفعته الأقدار إلى مصاف العلماء الكبار، لما عُرف عنه من جد واجتهاد.

وقد اشتهر بالزهد والتقشف في مأكله وملبسه، حتى بعد أن أقبلت عليه الدنيا

وتولى مشيخة الأزهر، بعد وفاة الشيخ العروسي سنة ١٢١٨هـ. وعُرف بعمامته الكبيرة. وطوال فترة السنوات التسع التي قضاها شيخا للأزهر، شهدت مصر أحداثا هامة، كان للشيخ دوره المؤثر فيها.

كان الشعب كلما تعرض لظلم لا يستطيع دفعه، يلجأ إلى علماء الأزهر، فهم أصحاب السلطان الروحي، وهم وحدهم القادرون على مواجهة استبداد الحكام الطغاة. ومن المواقف التي رفعت الإمام الشرقاوي إلى مرتبة الزعامة الشعبية مقاومته لطغيان محمد بك الألفي.

فقد حضر بعض أهالي بلبيس إلى الشيخ الإمام الشرقاوي، وشكوا إليه من طغيان محمد بك الألفي، الذي أرسل أتباعه إليهم، يطلبون ما يطلبون من أموال.

غضب الشيخ لغضبهم وما ينزل بهم من ظلم، ووعدهم بالتصدي لهذا الطاغية، فحضر إلى الأزهر الشريف ودعا كبار العلماء لعقد اجتماع في الأزهر لتدبر الأمر، واستقر رأي العلماء على خوض المعركة ضد أمراء المماليك وأفزع اجتماع المشايخ وغضبهم مراد بك وإبراهيم بك والوالي، فحاولوا تدارك الأمر، ودعوا العلماء الغاضبين إلى منزل إبراهيم بك، فحضر من العلماء الشيخ الشرقاوى والشيخ السادات، والشيخ البكري، والشيخ الأمير والسيد عمر مكرم.

**إضراب عام:**

وقد سبق ذلك الاجتماع إغلاق الأزهر، وأمر الشرقاوي الناس بإغلاق الحوانيت فيما يشبه الإضراب العام ، بلغة هذه الأيام.

في الاجتماع سأل إبراهيم بك الشيخ الشرقاوي: لماذا أغلقت المسجد وأمرت الناس بإغلاق الحوانيت؟.

فقال الشيخ: نريد العدل، ورفع الظلم وإقامة الشرع وإبطال المكوس «الضرائب»، والذي دفعنا إلى ذلك ظلم الألفي وتعديه هو ورجاله على أهالي بلبيس.

ودافع بقية العلماء عن حقوق الشعب دفاعا حميدا مجيدا، وأصروا على إجابة مطالبهم.

فقال إبراهيم بك: لا يمكن الاستجابة لهذا كله، فإننا إن فعلنا هذا ضاقت علينا المعايش والنفقات. فقالوا له: ليس هذا بعذر عند الله ولا عند الناس، والأمير يكون أميرا بالإعطاء، لا بأخذ الأموال من الناس، ووعدهم إبراهيم ومراد بك بالنظر في الأمر، ولم ينفذا شيئا.

وانفض المجلس وركب المشايخ إلى الجامع الأزهر، واجتمعت حولهم جماهير الشعب وباتوا بالأزهر، مزمعين على الثورة. ففزع الوالي والأميرين، واستدعوا المشايخ مرة أخرى، وتمسك العلماء برأيهم وأصروا على تنفيذ مطالب الشعب. فوافق الأمراء مذعنين.

وهنا صمم «الشيخ الشرقاوي» أن تكون الاستجابة كتابة يوقع عليها أمراء المماليك حتى لا يعودوا إلى فعلتهم مرة أخرى. وتم تحرير الوثيقة التي عُرفت بالشرطة وكان من بنودها:

* لا تفرض ضريبة جديدة إلا إذا أقرها الشعب.

* أن ينزل الحكام على مقتضى أحكام المحاكم . أي ينفذوها.

* ألا تمتد يد ذوي السلطان إلى أفراد الشعب إلا بالحق والشرع.

وقد وقع الوالي على هذه الوثيقة، ثم ختمها مراد بك، وكانت هذه الوثيقة أشبه ما تكون بإعلان حقوق الإنسان، وقد هلل الشعب لهذا الظفر، وهتف من الأعماق: لا مظالم ولا حوادث - اعتداءات على الناس - ولا مكوس - ضرائب - وكأنهم بذلك يقولون أن الأمة مصدر السلطات، والعلماء حراس الأمة(*).

(*) سنية قراعة، تاريخ الأزهر، مكتب الصحافة المدولى، ١٩٨٦، ص٢١٢.

### عضو الديوان:

ولما أنشأ نابليون بعد احتلاله مصر، الديوان الوطنى ضم إليه عشرة من العلماء على رأسهم «الشيخ الشرقاوي»، وأمر نابليون أن تؤدى للعلماء التحية العسكرية إجلالاً لهم، وكان يستقبلهم عند المقر الخارجي لقيادته، وخصص لكل منهم جوادا ككبار رجال الدولة، وشارك في الأعياد الدينية، وأمر جنوده بإطلاق المدافع في هذه المناسبات.

لكن «الشيخ الشرقاوي» بحسه الوطني وفطرته السليمة أدرك أن ما يفعله نابليون مجرد مظاهر لتأليف العلماء واستمالتهم نحوه، ولم ير فى نابليون إلا غازيا معتديا، لكنه رأى مهادنته حتى تنتظم صفوف الشعب ويصبح قادرا على الثورة والانقضاض على المحتل.

واستغل الشيخ علاقته الطيبة بالفرنسيين، فكان يشفع للأهالي في رد المظالم، ومنع جنود الحملة من العبث والخروج على التقاليد الإسلامية. وكان نابليون يلبي طلباته إلى أن أحس واكتشف عداوة الشرقاوي للحملة، فقبض عليه وسجنه في القلعة مع زعماء الجهاد، لكنه سرعان ما أفرج عنه لمكانته وخوفا من أن يؤدي استمرار اعتقاله إلى زيادة الغليان في صفوف الشعب.

وكان نابليون ينصح رجاله، ويقول لهم: إذا كسبتم ثقة العلماء، وخاصة هذا الشيخ -يقصد الشرقاوي- فستكسبون الرأي العام في مصر كلها. لأنه كان يعرف قوة سلطان العلماء الروحي لدي الشعب. ومكانة الأزهر في نفوسهم.

### سعة أفق:

ولم يكن «الشيخ الشرقاوي»من العلماء الجامدين أعداء كل جديد، وإنما كان متفتح الذهن واسع الأفق، تنبه إلى المدنية الحديثة والعلوم المتطورة التي جاءت بها الحملة الفرنسية، وكان يقارنها بحالة التخلف الذي كانت عليه مصر وكل الولايات الخاضعة للحكم العثماني.

ولما علم نابليون أن «الشيخ الشرقاوي» يتلقى رسائل سرية من الخليفة العثماني، أثر ذلك في نفسه، ولكنه لم يستطع إثبات ذلك ولا إلى وسيلة تسللها إلى البلاد، فلم يفعل للشيخ شيئا. إلى أن غادر نابليون مصر، وهو يتوجس من «الشرقاوي» خيفة فوراء هدوء هذا الشيخ ومهادنته تكمن بوادر ثورة وأشياء لا يمكن التنبأ بكنهها.

وعندما قُتل كليبر على يد الطالب الأزهرى «سليمان الحلبي»، قُبض على «الشيخ الشرقاوي» و«الشيخ العريشي».. بوصفهما المحرضان على عملية الاغتيال، وأنهما ساعدا «الحلبي» وحفزاه لهذه العملية. ولكن قادة الحملة سرعان ما أفرجوا عن الشيخين خوفا من هياج الشعب، في مرحلة كانوا ينشدون فيها تهدئة الأهالي.

## التغيير من أجل الأفضل:

وبعد أن خرجت الحملة الفرنسية من مصر عام ١٨٠١م، استمر دور الشيخ «عبدالله الشرقاوي» في تزكية النفوس ودفعها للثورة والتغيير من أجل الأفضل. بعد رحيل الحملة عانت البلاد من ظلم وطغيان الفرق الأجنبية والقوى المتعددة سواء العسكر العثمانيين وفرق الإنكشارية وفرقة الأرناؤود، وفريق الدلاة، وهم الأكراد الذين استجلبهم «خورشيد باشا» لضرب الفرق الأخرى، وأخذوا جميعا ينهبون ويستبيحون الحرمات، فضج الناس بالشكوى، ولجؤوا «للشيخ الشرقاوي»، فقاد مجموعة العلماء وآلاف المواطنين وذهب إلى الوالي، فكتب إلى رؤساء الفرق للكف عن النهب والسلب، لكنهم لم يسمعوا إليه، فأعلن العلماء وعلى رأسهم «الشيخ الشرقاوي» عزل خورشيد وتولية «محمد علي»، ورفض خورشيد العزل، لكن السلطان العثماني أقر ما فعله العلماء، وأكد أن موافقته جاءت تلبية لمطالب العلماء والرعية. فكانت هذه فاتحة للشعب ليقرر مصيره وليختار زعامته.

وبينما كان محمد علي يطارد المماليك في الصعيد، جاءت حملة «فريزر ١٨٠٧م» واحتلت القوات الإنجليزية الإسكندرية، وزحفت إلى رشيد، فهب العلماء وعلى رأسهم الشيخ الشرقاوي يحمسون الناس على الجهاد والمقاومة، وانتصر الشعب

ورحل الإنجليز بعد أن تكبدوا خسائر فادحة. فتأكدت زعامة الشرقاوي وعمر مكرم للشعب، واضطر الوالي الجديد محمد علي إلى مهادنتهما.

## خاتمة عهد:

ومات «الشرقاوي» بعد حياة حافلة بالجهاد والثورات سنة ١٢٢٧هـ (١٨١٢م). وكان موته خاتمة عهد، وبداية عهد جديد، عهد تخلصت فيه مصر من أدران المفاسد والمظالم واستطاعت بقوة شعبها وشدة بأسه، وعزة تماسكه في فرض سلطانها، وأن تسدل على الماضي ستارا داكنا، وأن تفتح يديها مرحبة لتستقبل عهد جديد.

وترك الشيخ الشرقاوي - رحمه الله - كثيرا من الرسائل والكتب القيمة منها:

* التحفة البهية في الطبقات الشافعية.
* العقائد المشرقية في التوحيد.
* الجواهر السنية على العقائد المشرقية.
* تحفة الناظرين فيمن ولي مصر من السلاطين.
* شرح على حكم ابن عطاء الله السكندري.
* ربيع الفؤاد في آداب الطريق وترتيب الأوراد.